من وسائل البريد الجوى في الاسلام :

الحمام الزاجل [1]

للأستاذ عطا الله ترزى باشى

لقد تحقق من دراسة العلماء الباحثين أن فكرة استخدام الحمام ظهرت منذ وجود البشرية على وجه البسيطة . واستنتج العالم الانكليزى (داروين) ان المصريين القدماء استخدموا الحمام قبل الأسرة الفرعونية الخامسة. ويذكر (هوميروس) أن اليونانيين كانوا معروفين بتربية الحمام منذ العصور الغابرة ، كما استفاد الرومان من هذه الوسيلة أثناء استيلائهم على بلاد اليونان. ويشير المؤلف نفسه إلى ان استخدام الحمام عم فى الهند حوالى سنة ١٦٠٠ م .

وأول اشارة وردت فى الكتب المقدسة عن استخدام الحمام هو ما جاء فى التوراة، فقد اطلق النبي نوح عليه السلام حماماً من سفينته أثناء الطوفان ليستدل به عما إذا كان الماء قد غيض . ويشير ابو سفيان الثورى إلى ماورد فى القرآن حول كلمة «المؤتفكات» إلى أنها مدن جرت بينها المخابرة بالحمام الزاجل قبل الميلاد بألفى (راجع نجيب عاصم : كوجرجين بوسته سى «فى اللغة التركية» ص ١١) .

وقد قام الحمام الزاجل فى العهود الغابرة بوظيفتى البريد والتلغراف. ويقال أن أول عهده بهذه الوظيفة كان فى سنة ٦٧٨ ق م بأثينا ؛ فقد أحضر أحد اليونانيين حمامة من جزيرة (أوجين) وبعد أن حضر مسابقة فى الألعاب كانت له الغلبة فيها أرسل هذه الحمامة إلى أهله لتحمل إليهم خبر فوزه، فاحدثت هذه الرسالة فكرة استخدام الحمام فى المواصلات البريدية ثم انتشرت هذه الفكرة فى أكثر بلاد العالم (عبد الغنى غنام: الحمام وتربيته ص٨)

ولما أن بزغ فجر الاسلام ادخلت تحسينات كبيرة فى طريقة استخدام الحمام الزاجل حتى امتاز المسلمون فى ذلك على سائر الأمم . ولقد قيل إنهم كانوا يستخدمونه فى المواصلات البريدية وخاصة خلال الحركات العسكرية بدرجة لم يبلغها الأوربيون فى استخدامهم الحمام فى الحروب الحاضرة (سياح كوكرجينلر « فى اللغة التركية » ص ١٤)

وقد أجمع المؤرخون — كما جاء فى كتاب الحيوان للجاحظ — على أن المسلمين كانوا أول من استخدم الزاجل فى الرسائل فى القرن الثانى للهجرة .

ويبحث المؤرخ التركى عبد العزيز فره جلبي فى كتابه المشهور «روضة الأبرار» عن استخدام الخليفة المتقى بالله فى سنة ٣٣٣ هـ الحمام الزاجل فى بغداد ؛ فقد أرسل هذا الخليفة خطاباً بواسطة الحمام إلى الأمير المصري آقشيد يدعوه إلى معاونته على الأمير توزك ويبحث المؤرخ نفسه فى حوادث سنة ٣٧٢هـ عن استخدام الحمام فى أغراض أخرى غير الرسالة» (١).

ورأى صاحب (التعريف) ان الزاجل نشأ فى الموصل بالعراق وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر وبالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام، وللقاضى محى الدين بن عبد الظاهر فى ذلك كتاب سماه: « تعائم الحمام » .

وأما أول من نقله من الموصل فهو الشهيد نور الدين بن محمود زنكى سنة ٥٦٥ هـ ففى هذه السنة اتخذ نور الدين بالشام الحمام الهواوى وهى التى يقال لها المناسيب وهى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها ، وجعلها فى جميع بلاده فساعدته كثيراً فى حروبه أيام الفرنج (عبد الغنى غنام : نفس المرجع ص١١ وص ٨٥)(٢)

والواقع أن السيد خليل داهرى من مؤلفى القرن الثانى يحدثنا عن الأبراج التى شيدت فى نقل الرسائل فصارت مدينة الموصل حينذاك مركزا هاماً لشبكة واسعة من دوائر المراسلات . وكان نور الدين بن محمود قد وسع هذه الشبكة داخل البلاد التى فتحها لتلقى الأخبار فى أسرع وقت ممكن، فأمر بتشييد الأبراج المسماة بـ (البريد) فى مصر وسوريا بأن لا تزيد المسافة بين كل برجين عن أثنى عشر ميلاً. وقد عين فى هذه الابراج حراساً يراقبون

(١) ويقال لحمام الرسالة وحمام البطاق وقيل أن كلمة البطاق مأخوذة عن « بطاكيون» ومعناها فى اليونانية الرسالة .

(١) وانظر الدكتور ابراهيم العدوى فى مجلة المجمع العربى العدد ٢١ من السنة العاشرة وانظر فى اللغة التركية سياح كوكر جينلر ص ٤٢

(٢) نقلا عن مجلة المقتطف (ديسمبر ١٩٠٢)

حركات الحمام طيلة الليل والنهار ، وخصص من الخزينة المبالغ الكافية لإدارة شئون هذه التشكيلات . (نجيب عاصم : المرجع السابق ص ١٨) .

وفي سنة ٦٢٣ هـ قام الخليفة العباسي (أحمد) بتأسيس شبكة أقوى وأحسن مما أسسه نور الدين كما سبق ذكره .

ومما يذكر في هذا الصدد أن أمير الجيش الإسلامي فخر الدين أعلن في سنة ٦٤٨ هـ حادثة سقوط مدينة دمياط من جانب (سن لويس) ملك فرنسا بحمام أرسله إلى السلطان صالح نعيم الدين .

ويذكر (جو وانويل) الكاتب الخاص لـ (سن لويس) أن المسلمين أبلغوا خبر ورود الصليبيين إلى بلاد السودان ثلاث مرات بالحمام الزاجل .

ويذكر صاحب كتاب « حمائل الحمامات » أن الرسائل كانت تحرر في ورق حريري خاص يسمى بورق الطير وتوضع في قوارير ذهبية خفيفة تعلق في عنق الحمام أو في ذيله وأحياناً كانت تربط بجناحيه ، ويكتب في الورقة تاريخ يوم الإرسال وساعة حركة الحمام . وقد جرت العادة أن تكتب في أول الرسالة عبارة « الحمد لله » وفي آخرها « والله تكتفي » .

وكانت المخابرات تجرى بين البلاد حينذاك كما يلي :

— بين القاهرة والإسكندرية ، ودمياط ، وغزة ؛

— وبين غزة والقدس ، والصفد ، والشام ؛

— وبين الشام وبعلبك ، وحلب ، وطراباس الشام ؛

— وبين حلب وبهسنى .

وقد أعتادوا قديماً على إرسال نسخة ثانية من الرسالة تكون طبقاً لصورة الأصل وذلك لإزالة الخوف الناشيء من ضياع الأصل في الطريق .

وعند وصول الحمام إلى محله يقوم الموظف المختص بقراءة الرسالة ووضع تاريخ يوم وصولها والساعة التي استلمها فيها .

وشاع إستخدام الحمام في الحروب الصليبية ؛ ففي سنة ٤٩٢ هـ حينما حاصر الصليبيون مدينة القدس ، قام القائد العربي في موضع « حصار » الواقع بين القدس وأنطاكية ، بإبلاغ خبر تسليم المدينة بواسطة الحمام . وصادف أن وقعت حمامة بالقرب من « عكا » بيد الصليبيين وفي عنقها رسالة فيها تفاصيل الحركات الحربية لدى المسلمين فاطلع الفرنج على أسرارها ؛ وكان لهذه الواقعة أسوأ الأثر في نفوس المسلمين .

وكذلك استخدم السلطان صلاح الدين الأيوبي الحمام في ارسال التعاليم اللازمة إلى المحصورين في عكا فشيد برجاً في جبل « خروبه » للاتصال بهم ، فكانت الإتصالات قوية حسب المرام مدة حولين كاملين (٥٨٤ — ٥٨٧ هـ) (نجيب عاصم : نفس المرجع ، ص ٢٠) .

ولقد أساء بعض الزعماء العابثين والرؤساء المفسدين في القيام باستخدام الحمام في أغراضهم الخاصة للوصول به إلى غايات شخصية بحت . ومن بين تلك الوقائع غير المشروعة ما قام به (حسن بن صباح) رئيس الجمعية الحشيشية بالإستفادة من الحمام الزاجل في تحقيق الأغراض التي من أجلها أنشئت الجمعية . وفي سنة ٥٦٥ هـ تولى رئاسة هذه الجمعية (رشيد الدين سنان) الذي تمكن من تأسيس إمارة في سوريا باستخدام الحمام بصورة سرية وتزويد الأهلين بالوقائع التي تحدث في البلاد النائية قبل وصول أخبارها إلى الناس فكان بذلك يعتبر نفسه شيخاً كريماً وإماماً جليلاً يرشد الناس إلى الخير ويأمرهم باتباع طريقته .

وكان « عبد الله بن ميمون » رئيس مذهب الإسماعيلية يتنبأ بالحوادث قبل سماع الناس لها ، باستخدامه الحمام الزاجل فكون له مركزاً ممتازاً بين أفراد حاشيته (نجيب عاصم : المرجع السابق ص ٢١) .

ويذكر الأستاذ محمد كرد علي في مقال نشره في مجلة المقتطف « ديسمبر سنة ١٩٠٢ » إنه منذ سنة ١٨٥٠ — ١٨٦٠ بطل إستعمال الزاجل بين الإسكندرونة وحلب لأن بعض لصوص الأكراد أطالوا يد التعدي عليها وقتلوا أكثرها . ويشير إلى أن بعض المؤرخين ذكروا أن الدولة العثمانية أبطلت استعمال الزاجل في أواخر القرن الحادي عشر بعد أن لبث زمناً مستعملاً في بلادها فكان العثمانيون أبرع الناس في تربية الزاجل ... بيد أننا لم نجد في كتب التواريخ العثمانية أشارة إلى أن الدولة العثمانية قد استخدمت الحمام في شئون الرسالة . ولا نقول بهذا القول جزافاً فان العالم التركي المعروف نجيب عاصم يؤيدنا في كتابه السالف الذكر . فلا ندري من أين أتى الأستاذ محمد كرد علي بتلك المعلومات وهي المصادر التركية التي اعتمد عليها في ذلك !

عطاالله ترزي باشي
(كركوك — العراق)